علماء العرب

٢٠

الأنطاكي

أبو الصيدلة

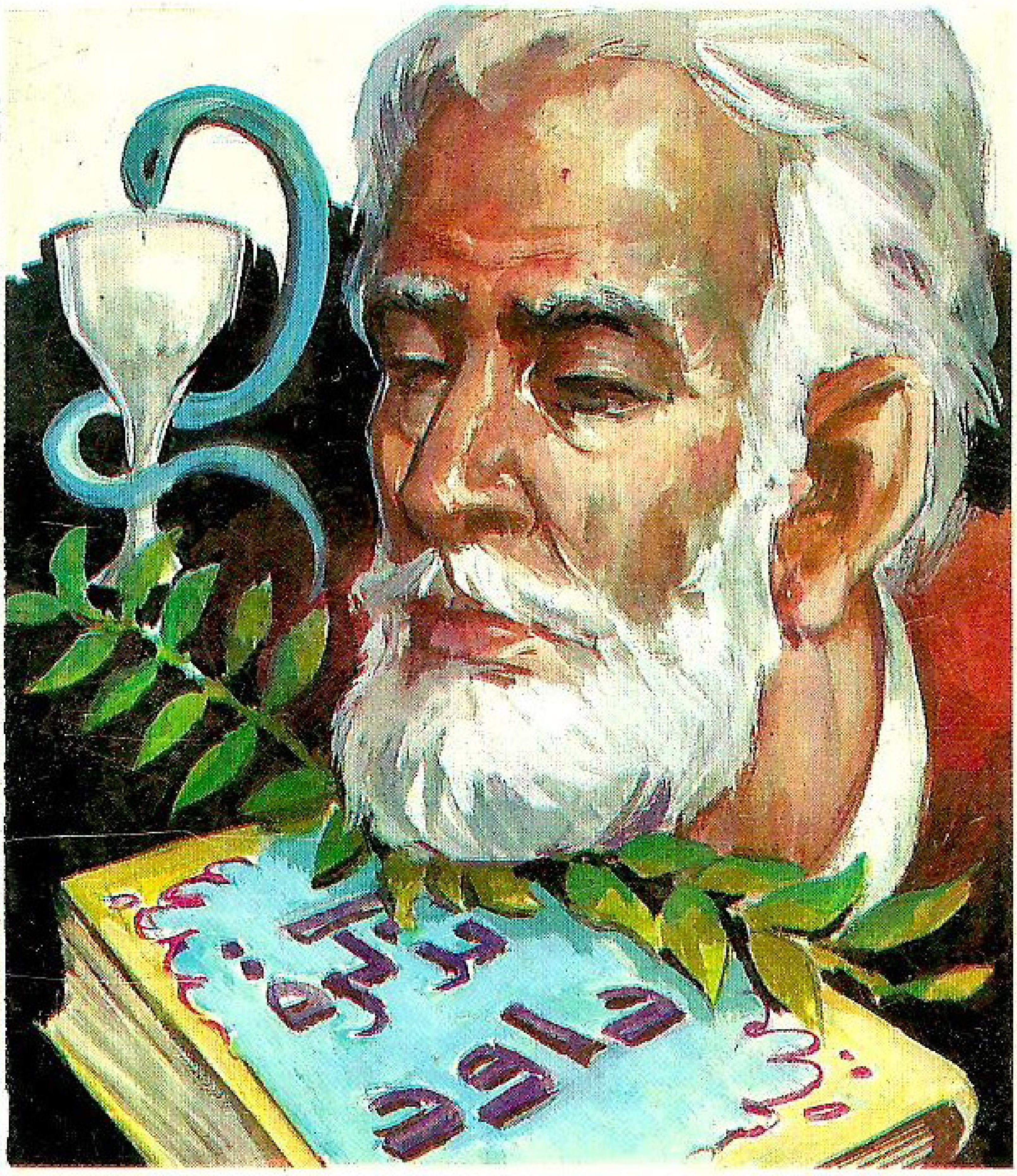

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب

(٢٠)

الأنطاكي
أبو الصيدلة

عبد الهادي الحبشي

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
جميع حقوق الطبع محفوظة
الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٥٧٤٧٠٨٣ - تلكس ٩٢٠٠٢ يو ان

نور القلب

كان « دَاوُدُ » الصّبى يسير فى حدائِق « أنطاكية » (شمال غربى سوريا) ، مع طبيبِهِ الفارسىّ « بَهزَادَ » ، بعد أن نجحَ الطبيبُ فى شفائِه من مرضِه الطوِيل .

وكان « داوُدُ » كفيفَ البصر ، فقد وُلِدَ لا يَرى من الدّنْيا شيئاً . وأخذ الطبيبُ يصِفُ لداوُدَ بالكلماتِ ما لا يَراه . ودَاوُد يُنصِتُ لطبيبِه ، دونَ أن يلتفِتَ إليه ، ويسمَع وصفَه فى سُكون ، دونَ أنْ يبدُوَ عليْه أىُّ انفعالٍ . وحين انتهى الطبيبُ من وصفِه لما يراه ، قالَ له « داوُدُ » :

– أَصْواتُ الطيورِ ، والمياهُ المنحدِرة (النازلة) فِى سَفْحِ الجبَلِ ، ونسيمُ الهواءِ بينَ التلالِ والهِضابِ ، تُحدِّثُنِى بكلِّ هذا الوصْفِ يا سيِّدى ، وكأننى أراه بعيْنَيْنِ مُبْصِرَتين .

ونظر إليه « داوُدُ » بعيْنَيْنِ واسعتَيْنِ ، سَاكِنَتَي السّوَادِ ، وكأنّهما تُبْصِرَان ، ثُمّ قَال :

– لكِنْ ، كمْ تمنيتُ يا سّيدى أنْ أَرَى هذِه الألوانَ ، التى ذكرتَها لِى : الأحْمَرُ ، والأصفرُ ، والأزرقُ ، والأخضرُ ، والأبيضُ ، والأسودُ ، وما بينَها من درجاتِ الألْوانِ ، ولَوْ للحظةٍ واحدَةٍ ، تبقَى فى ذاكرَتِى إلى الأبد .

وكادَ الطبيبُ « بهزادُ » أن يُعبِّر عن تأثرِه وانفعالِه بالبُكاءِ ، رِثاءً لحالِ « داوُدَ » ، وإشفاقاً عليه ، لكنهُ فوجِىءَ بداوُدَ يبتسِمُ ، ثم يضْحَكُ ، ويشدُّ بيدِه على يدِه ، قائِلاً :

– لا تُشْفِقْ علىّ يا سيِّدِى ، فمعِى رحْمَةُ اللهِ بى . لقد منَحنِى اللهُ عَقْلا ، أرجُو أن يكُونَ راجحاً ، وسمْعاً قوِيًّا ، يُعوِّضُنِى ، مع عَقْلِى ، عن نِعْمَةِ البَصَر .

عنَدَئِذٍ قبّلَ الطبيبُ « بَهْزَادُ » دَاوُدَ ، فى جَبِينِهِ ، قائِلاً له :

– تذكّرْ دائِماً يا دَاوُدُ ما قلته لِى الآنَ . فذلِك هو الإيمانُ ، والإيمانُ باللهِ ، وبالحيَاةِ ، يعصِمُك (يحفَظُك) يا بُنَىّ ، من كُلِّ ضَعْفٍ ، أو حُزْنٍ ، أو يَأْسٍ .

وعادَ « داوُدُ » و « بهزادُ » يسيرَان معا ، ويدُ أَحَدِهما فى يدِ الآخرِ . وكان « بَهْزَادُ » يوجِّه « داوُدَ » فى سَيرِهما ، بضَغْطَاتٍ خفِيفَةٍ من يدِه ، يُمْنَةً ويُسْرَةً ، وأَعْلَى وأَسْفَلَ ، وهُما ينزِلان منْحَدِراً ، أو يَصْعَدَانِ مُرتَفِعاً . و « دَاوُدُ » يَسْتَجِيبُ لِضَغْطَةِ يَدِ « بَهْزَادَ » فى يُسْرٍ (سهولة) . وعجِبَ « بَهْزَادُ » لأنّ « داوُدَ » فِى سَيْرِه معَه ، يسيرُ منتصِبَ القامَةِ ، مَشْدُودَ الرّقَبَةِ ، مَرفُوعَ الرأْسِ ، لا يميلُ رأسَه يُمْنَةً أو يُسْرَةً ، فى قلَقٍ متوتّرٍ ، مثلَ أكثرِ من فقدَ البَصَر . وهَمَس « بَهْزَادُ » لنفْسِه : « إنّه يرَى بنورِ القَلْب » .

سأعيش على ذاكرتى

اجْتازَ « بَهْزَادُ » و « دَاوُدُ » حدائِقَ « أنطاكية » الشرقيّة ، وتوغّلا معاً فى الجبلِ المُجاوِرِ لأنْطاكْيَة ، صاعِدَيْن إلى القِلاعِ الرّومانيّةِ الأثريّةِ الضّخْمَةِ ، فَوْقَ قِممِ الجبل ، وبين ذُراه (قِممه) المتدرِّجةِ الارتفاعِ .

وراحَ الطبيبُ يحدّث « دَاوُد » عن تِلْكَ القِلاعِ ، وكَيْفَ أنّها تُشكِّل قَوْساً واسِعاً ، يُحيطُ بأنْطاكيَةَ ، ويحكى لَهُ الحِكَاياتِ عن أسْوَار « أنطاكِيَةَ » الهائِلَةِ المحصّنة ، المُمتدّة فوْق الجَبَل ، وبين القِلاع ، مسافةَ ستّةَ عشَر مِيلاً ، وعن الأَبْراجِ الدِّفاعِيّةِ فى الأسْوارِ والقِلَاع . ثم قال له :

– بيْنَ كُلِّ بُرْجٍ وآخَرَ ، يا دَاوُدُ ، سبعُون خُطْوَةً بالتّمام .

فضحِك « داوُدُ » وقال :

– عرفْتُ ذلِكَ بنفْسِى يا سيِّدِى ، فقد أحصَيْتُ عدَدَ خطوَاتِى ، بين كل بُرْج وبُرْجٍ ، تحدّثُنى عنه .

فقالَ له « بَهْزَادُ » بدهْشَةٍ :

– هل تعُدّ خطواتِكَ فِى السيْرِ يا دَاوُدُ ؟

فقال لهُ « دَاوُدُ » :

– نعمْ يا سيّدى ، وأحْسِبُ عددَها كلّما انعطفْتُ يُمنةً أو يُسْرةً ، وكُلّما انحدَرْتُ أو صَعَدْت ، فإنّى أُحِبُ أنْ آلَف (اعتاد) الأمَاكِنَ ، وكأنّها بَيْتِى ، حتّى إذَا ما سِرْتُ فيهَا وحْدِى ، لم أفقُدْ طرِيقِى ، وأضِلَّ فى سيْرِى ، أو أَظُنّ أنّنى أصْعَدُ ، عَلَى حِين أنّنِى أنْحدِرُ ، أو أتوهم أنّنِى أنْحدِرُ ، على حِين أنّنِى أصْعَدُ ، فأتَعثّرَ فِى سَيْرى ، أو أسْقُطَ على وَجْهِى . أريدُ أنْ أتذكّرَ كلّ طرِيقٍ جيّداً . فعَلَى ذاكِرتِى سأعيشُ بقيّةَ عُمرِى .

فقالَ له « بَهْزَادُ » بإعجاب :

– أَنَارَ اللهُ لَكَ بصيرتَكَ يا دَاوُدُ . وأَحْسِبُ أنّكَ ستكونُ أيضاً ، بحاجَةٍ إلى عصاً ، تَتوكّأُ (تستند) علَيْها ، وتتحسّسُ بها طريقَكَ ، حين تسِيرُ وحيداً بلا رِفيق .

الحوارِىّ حبيب النجار

توقّف « بَهزادُ » و « دَاوُدُ » ، أمَامَ قَلْعةٍ شاهِقَةٍ (عالية) . وقال له « بَهْزَادُ » :

– هَذِه القَلْعَةُ الضخْمةُ بناها الإمبرَاطُور البيزَنطِىّ « نقفُور فُوكاس » وقد جعَلها الظاهِرُ « بِيبَرْسُ » أنْقَاضاً ، والسّبَبُ هُو ..

فِقاطَعَهُ « داوُدُ » قائِلاً :

– السّبَبُ تحصّنُ الصّلِيبِينَ بها ، أثْنَاءَ احتلَالِهم لِدِيار الشّام . أعِرفُ ذلِكَ يا سيدى . حَكاهُ لِى أبِى .

فضَحِك الطبيبُ وقَالَ له :

– وما الّذِى تعرفهُ أيضاً يا دَاوُدُ ؟

فَقَال له « دَاوُد » :

– بيْنَ أنْقَاضِ هذِه القلعة ، يُوجَدُ قَبْرُ الحَوارِىّ « حَبيبُ النَّجارُ » الّذِى مات شَهيدا .

فَقَالَ لهُ « بَهْزَادُ » :

– فاعْلَم يا دَاوُدُ أَنّ حبِيباً هذا ، كانَ اسمُه « سِيلِيبوس » وأنّه كانَ أَوّلَ منْ آمَنَ بعِيسَى بن مريَمَ ، من أهْلِ « أنطاكيَةَ » ، وأنّ المُسْلِمين يُسمّونُه « حَبِيبُ النّجّارُ » . ويَزُورُون قبرَه إلَى اليَوْمِ ، مِثْلَما يزُورُه المِسِيحيّون .

وانحدرَ الاثنانِ : « داوُدُ » و « بَهزادُ » ، مارَّيْن فى نُزُولِهما من الجبل ، بأهمِّ آثار « أنطاكية » ، حتى بلَغا « نَهْر العَاصِى » ، فَعَبَرا فوقَه قناطِرَ مُعلّقةً ، لا تزالُ أطلالُها ، وبعْضُ آثارِها ، باقِيةً إلَى اليومِ .

مدينة الصناعات

كانت « أنْطَاكْيَةُ » آنذاك ، أكبَرَ مركزٍ للتجارَةِ بينَ الشرْقِ والغربِ . فعندَها كانتْ تلتقِى الطرُقُ الموَصِّلةُ بين النهرِ والبحْرِ ، بالطّرقِ البَرِّيةِ التى تؤدِّى من الشّام إلى آسْيا الصغرى (تركيا الآن) .

وكانَتْ « أنطاكيةُ » مركزاً من مراكِزِ صناعاتِ : الحريرِ ، والصّابُون ، ومزْرَعَةً من مزارِعِ : القَمحِ ، والزيتُونِ . وكانتْ نَواحِيها هُنَا وهنَاك ، فى الجَبلِ ، مِثْلَمَا فِى الوَادِى ، شاهِدَةً على كثيرٍ من الزّلَازِلِ ، التى تعرّضَتْ لهَا « أنطاكْيَة » عبْرَ القرون ، وبرغمِ آثارِ الزّلَازِلِ ظلّت هذه المدينةُ بِساطاً من الخُضْرَةِ ، رائعَ الجَمال ، بجانِبِ جبالِ « كازْيُوس » العارِيَةِ الجَرْداءِ ، وأشْهَرُها جبلُ « سيليبوس » المعروفُ بجبلِ « حَبيبِ النّجّار » .

نهـر الأسمـاك

دخَل « داوُد » مع طبيبِه الفارسى « بهزَادَ » إلى بيتِ أبيه « عُمَرَ الأنْطَاكِى » ، مُختار (عمدة) قريةِ « حبيب النجار » وكانتْ قريةً قريبةً من « أنطاكية » . وكانَ أبُوه هو أغْنَى أغنيائها ، فلَهُ فِى القَرْيةِ ، وفى « أنطاكْيَةَ » مَتاجِرَ وعَقارَاتٍ ، ولهُ حولَ القريةِ مزارِعُ شاسِعةٌ ، مزروُعةٌ بالقَمْحِ والزّيْتُونِ .

والْتَامَ شَمْلُ الأُسْرَةِ ، معَ « بَهْزَادَ » ، حولَ مائدةِ الطّعَامِ . وكانتْ مائدةً حافِلَةً بالأسْماكِ : المشويّة ، والمقْلِيّةِ ، والمسْلُوقةِ ، يتوسّطُها طَبَقٌ واسِعُ ، به أَسْماك ثَعَابِين الماءِ ، التى يُحِبُّها « داوُدُ » ، ويُفضّلُها على كافّةِ الأسْماكِ ، فَلا عِظَامَ تُذْكَرُ بهَا ، ولا أشْوَاكَ . وضحِكَ أبُوه ، وهو يُقدّمُ له مِلْعَقَةً وشَوْكَةً خَشَبّيتَيْنِ ، كانتْ تشتهِرُ بصُنْعِهما سواحِلُ الشّام ، وقال :

— من حُسْنِ حظّكَ ، يا داوُد ، أن نَهْرَ العَاصِى مَلِىءٌ عَلى الدّوَام بثعابِين الماءِ .

وحِينَ انتَهى الكلُّ من الطعام ، قدّم لهم خدمُ الدارِ (البيت الكبير) حَلْوى الشّام ، ثم قَدّمُوا لهُمْ طُسُوتَ النّحاسِ ، وصابُون أنطاكيَةَ ، وصبُّوا على أيدِيهم مياهَ الأباريقَ النحاسيّة ، الدقيقة النّقُوش .

أَحبَّـــكَ ولَـدِى

ذاتَ نَهارٍ ، قالَ « بَهْزادُ » لعُمَرَ الأنْطَاكِى :

– آنَ لضَيْفِك « بهزادُ » أَنْ يرحَلَ أَيُّها المُخْتارُ (العمدة) . فقد شُفِىَ ابنُك « داوُدُ » من مَرَضِه ، وعافاه الله . ولا أُوصِيه إلا بالاحتِراسِ من الجُلوسِ على الأَحْجارِ الرَّطْبَةِ ، حتى لا يُعاوِدَه بَرْدُ الحَوْضِ ، والفَخِذَيْنِ .

عندئِذٍ فُوجِىءَ الرجُلانِ بصوتِ « دَاوُدَ » يقُولُ لأبيه برَجاءٍ :

– لا تَأْذَنْ له يا أَبى فِى الرحيلِ عن أنطَاكْيَةَ ، فأَنا بحاجَةٍ إليهِ الآنَ ، وأَنا سَلِيمٌ مُعافى أَكْثَرَ مما كنْتُ فى مَرَضِى .

كانَ « دَاوُدُ » قد دخَلَ القَاعَةَ الكبيرةَ لتوّه (حالاً) وسمِعَ ما قالَهُ « بَهْزادُ » لأَبيه . وقالَ الأبُ للطبيبِ ضاحِكاً :

– ها أَنْتَ قَدْ سمِعْتَ جوابِى أَيُّها الطبيبُ ، على لسَانِ « دَاوُدَ » . أَحبَّكَ ولَدِى ، وتَعلَّقَ بكَ .

فقالَ « داوُد » لأَبيه :

– الحبُّ نعم . لكنّ حُبِّى لنْ يَمْنَعَه من الرحيلِ عَنّا ذاتَ

يَوْم . لكنّنِى بحاجةٍ إليه الآن ، لأَتعَلَّمَ على يَدَيْه : اللغةَ الفارسية ، وعِلْمَ الطب ، وعِلْمَ الدواءِ . ولن تَضِنَّ (تبخل) عليْه يا أَبى بمال . ولنْ تحرِمَه إقامتُه مَعَنا ، من ممارسَةِ طبِّه ، بين أَهْلِ « أنطاكية » وضواحِيها .

عندئذٍ قالَ الطَبيبُ الفارِسىّ لداوُدَ بدهشَةٍ :

– أُعَلِّمُكَ الفارسِيَةَ يا بُنى ، لا بَأْسَ بذلِك . لكنَّ .. الطبَّ .. كيفَ .. و ..

فقال « دَاوُدُ » بمرارة :

– كَيْفَ وأَنا لا أَرَى ، ولا أَكْتُبُ ولا أَقْرَأ ؟ سأَقُولُ لك كيفَ يا سيِّدِى . العلمُ معْلُومَات . والعِلْمُ يُلَقن ، ويَثْبُتُ فى الذّاكِرَةِ لمنْ يَشاء . والطبّ عِلْمٌ بدورِه . والعِلاَجُ يتِمّ بالسُّؤالِ والجَوابِ للمريض ، والتفكيرُ يُشخِّصُ المرض ، والأيدِى تَتحسّسُه .. أَلا يُمكِنُ إذنْ لفاقِدِ البَصَرِ أن يتعلّمَ الطِّب ، ويعالِجَ بالدّواءِ ، مستعيناً بسِواه ، حتّى وهو بلا بَصَر ؟

وَجم (سكت) الطَبيبُ الفارسىّ ، ثم قَالَ باستِسْلاَم :

– غَلَبْتَنِى يا بُنَىّ . سأَقْبَل ذلِكَ يا دَاوُدُ ، وأُعَلِّمُكَ اللغةَ الفارسِيّة ، وما أَعْرِفه من الطبّ الفارسِىّ والعربىّ أيضاً ، لكن .

إذا أرَدْتَ أن تَفوقَنى فى العِلْم يوماً ، فشُدْ الرحَال إلى آسْيا الصّغْرى (تركيا) وتعلّم اليونانية هناكَ ، وتعلّم معها الطِّبَّ اليُونانِيّ .

عِنْدئذٍ قَالَ « عُمَرُ » لبَهْزَادَ :

– من الأفْضَلِ ، لهُ ولَكَ ، أن نَبْعَثَ بداوُدَ إلى دِمَشْقَ ، ونُلْحِقَه طالِباً بِبِيمَارِسْتانِ (مستشفى) دِمَشْق ، ويتعلّم به الفارسِيّة ، واليُونانيَّة ، والطبّ ، والدَّوَاء .

فقالَ لهُ « داوُدُ » :

– يا أَبِى . إن أحداً مِنْ أطباءِ دِمَشْقَ ، لن يسمَحَ بتعليمِ الطبِّ لمن فقَدَ بصَرَه . سيقُولُون : الطبُّ بحاجَةٍ إلى عينين ، فالطبُّ أكثَرُ من أىّ مهنةٍ أُخرَى بحاجةٍ إلى عيْنين . فلا أمَلَ لى فى تعلُّم الطبِّ إلا من طبيبنا الفارسىِّ هذا .

فقال « بَهْزادُ » لعُمَرَ الأنطاكىّ :

– نطَقَ داوُدُ بالصّوابِ يا أَبا دَاوُد . وسأبذُلُ جهدِى فى تعليمه ما عِشْت . ومن يدرى . قد أُوثِرُ البقاءَ فى بلدتِكم الجميلة بقِيّةَ عُمرِى . لكنّنى ، يا أَبَا داوُد ، بحَاجَةٍ إلى أهْلى ، وهُمْ مقيمُون ، فى « شِيراز » بفارِسَ (إيران) ، فلسوف تُمرّ السُّنُون ، ويطُول مُقامِى معَ « داوُد » .

فقال « عُمَر » لبَهْزَادَ :

– لا تَحْمِلْ هَماً لهذَا الأمْرِ . غداً نُرْسِلِ من يأْتِى بكُلِّ أهلِكَ إلَيْكَ . ونَشْرَعُ (نبدَأُ) فى إقامَةِ بيتٍ فسيحٍ ، لَكَ وللأَهْل ، فِى قريةِ « حبيبِ النّجار » .

النفس والجسد

كانَ الطبيبُ « بَهْزادُ » مَوْسُوعَةً « دائرة معارف) حَيّةً ، متحرِّكة ، تَسْعَى على قدَمَيْنِ . كانَ بارِعاً فى عُلُومٍ : المنطقِ ، والرياضيّاتِ ، والطبيعيّاتِ ، بَرَاعَتَهُ فى عَزْفِ المَقْطُوعَاتِ الموسِيقِيّةِ الفارِسيّة ، والعَرَبِيّةِ ، على العُود . وكانَ يعرِفَ اللغةَ العَرَبيّةَ مَعْرِفَتَهُ بلغَةِ قَوْمِه الفارِسيّةَ . وكان يُحِبُّ التدريسَ لسِواه ، مِثْلَمَا يَهْوَى عِلاجَ مَرْضاه ، لكنّه لم يكُنْ راغِباً فى أَنْ يُؤَلِّفَ فى أىِّ عِلْمٍ . فبعَضُ الناسِ ، مِمّنْ هُمْ مِثْله ، يُؤْثِرُون (يفضلون) الحَيَاةَ بعِلْمِهم ، ونفعَ الناسِ بِهِ ، على أن يكونُوا مؤلّفين للعُلُوم . وكذلك كانَ هَذا الطبيبُ الفارِسىّ .

وراحَ « داوُدَ » يتعلّمُ على يدىْ « بهْزادَ » ، شهْرا بعْدَ شهرٍ ، وعاماً بعْدَ عامٍ ، كُلَّ مَا يعرفُه « بهزادُ » من العُلُوم ، فَقَدْ أَبى عليْهِ « بَهْزَادُ » أَنْ يَدْرُسَ الطِّبَّ ، قَبْلَ أَنْ يبدَأ بدراسةِ

المنطِق ، والطبيعياتِ ، والرياضياتِ ، المعروفَةِ فى زمانِه ؛ بَلْ وراحَ يُحَبِّبُه إلى المُوسِيقى ، ويُعلِّمه كيْفَ يسمَع ، وكيْف يعزِفُ ، حتى يتسِعَ أُفُقه العَقْلِىّ لمعارِفَ الطّبِّ ، وهى مَعَارِفُ مُتشابِكَةٌ ، مُعقَّدةٌ ، بينَ النفسِ والجَسَد ، فالنفْسُ تُؤَثّر فى الجسَد صِحّةً ومَرَضاً ، والجَسَدُ يُؤَثّر فى النفسِ صحة ومَرَضا ، وحتّى يرِقّ قلبه بالموسِيقى لمرضَاه ، مثلما تطيبُ نفوسُ هؤلاءِ المرضَى بسمَاعِ الموسيقى ، ورُؤْيةِ الحدائقِ والبسَاتِين .

.. وحان دور الطب

استجابَ « داوُد » لبرْنَامَجِ (خطة) أستاذِه فى تعلِيمِه ، وتقدّم فى دِراستِه للغةِ الفارسية ، ولعُلُومٍ لا بُدّ مِنْها لمن يدرُس الطب ، حتى جاءَ يومٌ وَعَى فيهِ عقلُه الناضِجُ ، وحفِظَت فيهِ ذاكِرَتُه القويّةُ ، لغَةَ الفرسِ ، ومَعارِفَ العلومِ الدُّنيَويّةِ التى لا يعرِفُها إلى زمانِه سوَى العُلَماء .

وكانت قد مرَّت خمسُ سَنَوات ، بلَغَ مَعَها « داوُد » العشرينَ من العُمْر ، فأَخذَ « بَهْزادُ » يُعَلِّمُهُ ما يَعْلَمُه من معارِفِ الطبِّ ، تشْخِيصاً وعِلاجاً ، وأعْراضاً وأَمْراضاً ، وأَدْوِيةً مفردَةً أو مُرَكّبَةً ، من النّباتِ ، والأَحْجَارِ ، والحيوانِ ، والمعادِن .

واعتادَ « بَهْزَادُ » أن يصحَبَ تِلْميذَهُ « دَاوُدَ » معَه ، كُلّما ذهَبَ لزيارةِ مريضٍ من مرضَاه ، فى قُرَى « أنطاكْيَةَ » وضواحِيها ، ويصِفُ له بصَوْتٍ مسْمُوع حالَ المريضِ ، وأعراضَ مرضِه ، ويجعلُه يتحسّس بيديْهِ مواطِنَ (مواضِعَ) الداءِ (المَرَضِ) فى جسَد المريضِ ، ويذكرُ له الدواءَ الشافِى لمرضَاه .

واعتاد « داوُدُ » أن يسمَعَ فى جوْلَاتِه تهامُسَ النّاسِ :

« فاقِدُ البصرِ ويَدْرُسُ الطِّبَّ ؟! لم نَسْمَعْ بهذَا مِنْ قَبْل » . واعتادَ « دَاوُدَ » ألا يَحْزَنَ أو يَفْرَحَ بما يَسْمَعه من تَعليقاتِ الاستِنْكَارِ ، أو الإِعْجَاب .

واعتادَ « بَهْزَادُ » أن يفاجِىءَ « دَاوُدَ » بالأَسْئِلَةِ ، حولَ مَرَضٍ مَرِيضٍ ، فكَانَ « داوُدُ » يجيبُه باستفاضَةٍ ، ودِقّة ، إجابَةً تجعَلُ « بَهْزَادَ » يصِيحُ لهَا فرَحاً . ورُبمّا صَفّق له فى إعجاب ، ثم يقول له :

– حَمَى الله لكَ عَقْلَك يا دَاوُد ، وأَبْقَى لكَ ذاكِرتَك ، ونَوَّر بصِيرتَك إلَى الأبد .

وتَدرَّجتْ ثِقَةُ « بَهْزَاد » بداوُدَ ، فَرَاحَ يترُك لَهُ فَحْصَ المرِيض ، يتسمّع بأُذُنِه نَبَضَاتِ قَلْبِه ، ويجسُّ (يتَحسّس) بأصابِعِه مواطِنَ الأَلَم فى جسده ، ويدُقّ ناقِراً مَوَاطِنَ بعينِها من صَدْرِ المريضِ وظَهْرِه ، ولا يفْتَأُ (لا يكُفّ) يسأَلُ عن صحْوِه ونوْمِه ، وهضْمِه وبوله ، ونوْبَاتِ مَرَضِه فى ليله ونهارِه ، ثم يلتفتُ لأُسْتاذِه قائلاً :

– أَرَى أَنَّ مَرَضَه كذَا ، وأَنَّ عِلاجَه بكَذَا وكذا ، وغِذَاءَه يكُون بكَذَا وكَذَا .

آخر الدروس

وكانَ « داوُدُ » قد بَلَغَ من العُمرِ خمسةً وعشرِين عاما ، حينَ فاجَأَه « بَهْزَادُ » ذاتَ صَبَاحٍ بقَوْلِه :

– لا أَعْلَمُ يا داودُ من اليُونَانِيّةِ الكثير ، ولكنّنى صحبتُ فى بلادِ فارِسَ تُجّاراً من الرّوم ، واستَمعْتُ إليهم ، وهُمْ يتحدثون اليونانيّة ، واللاتِينِيّة ، وتعلّمْتُ منهم ما يكْفِى للحدِيثِ مع اليونانيّين والرّومَانِيّين . وقد آنَ لكَ أن تُسافِرَ يا دَاوُدُ إلى بلادِ الرّوم فى الأَناضول ، وبِيزَنْطة . ولذلِك ستحفَظُ عنّى ما أعرِفُه من اللغتيْن اليونانِيّة واللاتِينِيّة ، أنتَ ومنْ سيكُونَ رفيقاً لك ، فى سفرَكِ إلى تلكَ البلاد ، وإقامتِك هناكَ . ومن حُسْنِ حَظِّكَ أنّ ديارَ الأَنَاضولِ كلِّها ، قد خضعَتْ لحُكْمِ الأَتْراك العُثْمانِيِّين ، منذ أن فَتح محمدُ الفاتِحُ « القُسْطنطينيّة » ، ولسوفَ تكُونُ فرصَةً لك ، ولرفيقِك ، لتعلُّم اللغةِ التركِيّة أيضاً .

وامتَثَلَ (أطاعَ) « داوُد » لأستاذِه الحبيب ، وحفِظ عنه مَعَ منْ سيكُون رفيقَه فى سفرِه ، ومُرْشِدَه بقية عمرِه ، ألفاظاً ، وجُملاً ، من لُغَةِ اليونانِ ، ولُغَةَ الرّومَان ، والطبيبُ المعلّمُ يضبِطُ لهما النُّطْق ، ويُدَقِّق معهُما فى مخارِجِ الحُروف ، ويوضّح

لهما المعانى ، ويُحدِّدُ لهما موضعَ كلِّ سُؤالٍ ، ومَوْطِنَ كلِّ جَوابٍ .

وداع

كان رفيقُ « دَاوُدَ » ، هو « أَحْمَدَ » ، وكان ابنَ عمٍّ له ، وكانَ مُعَلِّماً من مُعَلِّمِى الصِّبْيان ، وقد وَعَدَ أَبَا دَاوُدَ أن يَنْذِرَ ما بَقِىَ من عُمرِه ، ليكونَ رفيقاً لابنَ عمِّه « داوُدَ » إلى الأبد .

وكان الاثنان : « داوُدُ » و « أَحْمَدُ » ، قد صارا مُسْتَعدَّيْنِ للسّفرِ والاغْترابِ والتَّرحَالِ ، طَلَباً للعِلْم حَيثُما كانَ . وقالَ « عُمَرُ » لولَدِه « داوُدَ » ، قَبْلَ أيّامٍ من سفَرِه :

– إن شِئْتَ زَوّجْناك ، حتى لا تَفْتِنَكَ نساءُ الروم ، وحتّى يخْلُوَ بالُكَ لما تَطلُبُه من العِلْم يا دَاوُدُ .

لكنّ داوُدَ قالَ له :

– لا زَوَاجَ لمن يطلُبُ عِلْماً مثلى ، ويتَحرّك مَعْ رفيقٍ ، إلا حينَ يستقِرُّ بِى المُقَام ، فى مُقْبِلِ السِّنِين .

وَوَدّع « داوُدُ » وابنُ عمّه الأَهْلَ ، والطبِيبَ الفارسّى ، ورَكِبا فَرَسَيْنِ ، واتّجَهَا إلى الشَّمَالِ . يتبعُهما خادِمٌ على بَغْلَةٍ ،

وكانت تسيرُ خلفَ الكُلِّ بَغلتانِ أُخريَانِ ، مُحمّلتان بِقِرَبِ الماءِ ، والأَطْعِمةِ المجفّفةِ ، والمقدَّدة .

تاريخ مدينة

فى الطريق قالَ ابنُ العمِّ « أحمدُ » لداوُدَ :

– اللهُ وحدَه يعلَمُ متى نعُودُ إلى أنطاكْيَةَ .

فقال لهُ « دَاوُدُ » :

– أكْثَرُ مكانَ سأَحِنّ إليهِ بها ، هو أَطْلالُ هَذا المسْرَحِ الرّومانّى . ففوقَ مَقاعِده الحجَرِيَّة ، كنتُ أَجلِس ، وأُفكِّرُ ، وأستَعيد دُرُوسِى ، وحيداً ، عَصْرَ كُلِّ يَوْم .

والتفتَ « داوُد » إلَى ابْنِ العمّ ، وأَضاف :

– الغريبُ أنّنى لا أعرِفُ حتى الآنَ تاريخاً لأنطاكْيَةَ ، مِثْلما أعرِفُ جغرافيّتها وأهْلَها . أنْتَ يا ابنَ العمّ مُعلّمٌ ، فأخبِرْنى .

فضحِكَ ابنُ العمّ ، وقال :

– حِينَ انتشرتِ المسيحيّة ، صارَ فى « أنطاكيةَ » ثلاثةُ

بطارِكةٍ للمذاهِبِ : المَلكَانيّة ، والمَارُونيّة ، واليَعْقُوبيّة . وقد سَقطَتْ أنطاكيَةُ فى قبضَةِ الفُرْس ، ثم استَردَّها الرّومان ، ثم فَتَحها العربُ على يدِ « أبى عبيدةَ بنِ الجراحِ » ، ثم استَولَتْ عليها الإمبراطورية البيزنْطِيّة ، فالسّلاجقَةُ الأتْراكُ ، فالصّلِيبيُّون ، فالمْمَالِيكُ المصريّون . وهَا هِى أخيراً قد خَضَعت للأتْراكِ العُثْمانِيين ، رُبمّا فى العَامِ الذى وُلِدْتَ أنتَ فيه ، أو بَعْدَه بقَلِيل .

وكانَا يواصِلَان سيرَهما بالجِيادَ والبِغَالِ ، ويتوقّفَانِ مع اللّيل فى الطّريق ، ويأْوِيان إلى خَانٍ (نُزُل = فندق صغير) صغيرٍ ، على الطّرِيق ، من هذه الخانات ، المستعدّة فى الليْلِ والنهارِ ، لراحةِ المسافرين .

قرن الحرب

مُنْذُ العِقْد الثانى ، من القرْنِ السادِسِ عشَرَ الميلادى ، الذى عاشَ فيه « داوُدُ بنُ عمرَ الأنطَاكِيّ » ، وقد استولَى العثمانِيّون على الشّامِ ، ومصرَ ، وغربِىّ جزيرةِ العربِ (الحجاز) ، وشَمَالِ غَربِىّ فَارِس ، والعراقِ ، وجزيرَتَىْ : رُودِس ، وقُبْرُص ، وبِلَاد المجرِ بأسْرِها . وبَسَطُوا سيادتَهم

الاسميّةَ على الشَّمَالِ الإفريقِىّ كله . ولَقَدْ بلغَتْ الإمبراطوريّة العُثْمانيّة فى هذا القرنِ أَوْجَ (قمة) اتِّساعِها ، وعِزَّ سُلْطَانِها ، وغايَةَ شُهْرَتِها ومَجْدِها ، قَبْلَ أن تَبدَأَ فى طريقِ انْحِدارٍ طَويلٍ ، لا يكادُ يحِسُّ بهِ أحَد .

وكانَ الرّوسُ ، بقيادَةِ الإمبراطور « ايفان الرهيب » يقُومُون بتَطهِيرِ حَوْض « نَهرِ الفُولْجا » ، ويَرُدُّون جيوش الدولة الصفوية الشّيعيّةِ إلى الوراءِ ، فتوسّعوا فى بلادِ فارِسَ ، وحمَلوا

أهْلَها بحدِّ السّيْفِ على مَذْهبِ الشيعةِ ، مِثْلَما فعَلُوا من قَبْل ، فى بلادِ مَا وَرَاءَ النهر (شرقِىّ بحيرةِ قزوين) وفى أفغانستان .

وفى هذا القرنِ الذى عاشَ فيه « داوُدُ » ضعُفَتْ أسبابُ الاتصالِ بين الشرقِ والغرْب ، والشمالِ والجنوبِ ، وكانت لهذا الضعْفِ عواقبُ وخيمةٌ (شديدة السّوء) . فالفِكْر الفارسىّ الإسْلامى ، قد صارَ عاجزاً عن إثارَةِ رُوحِ التّقدم فى العَالَمِ الإسْلامى .

وفِى هذا القرنِ أَثَارَ البرتغاليُّونَ نُذُرَ شُرُورٍ اقْتِصَادِيّةٍ خَطِيرة ، على المشرقِ العَرَبِىّ بأسْرِه ، وخاصةً مصرَ . فقَدْ بَلَغَ « فاسْكُو دِى جَاما » بِسُفُنه ومَدَافِعِه الحربيّة ، الهندَ ، عن طريق رأس الرجَاءِ الصالحِ ، وأقامُوا مُستَوطنَاتٍ عسكريّةٍ على طُولِ الساحِلِ الشرقِىّ لإفريقيّةَ ، وفى عُمَانَ ، وهُرْمُز ، وجزيرَةِ « سُقُطرى » اليمنيّة ، وشَنُّوا حَمْلاتٍ عسكريةً على الحبشَةِ ، فتحوّلت التّجارَةُ بينَ الشّمالِ والجنوبِ ، عبْرَ دِلْتا النيلِ والبحرِ الأحمرِ ، إلى طريقِ رأسِ الرجاءِ الصالحِ . وبدأ غِنَى مِصْرَ الهائِلِ ، والبُنْدُقِيّة ، فى الانحدارِ إلى مَهَاوِى الفقْر . ومهّدَ هذا الانحدارُ الطريقَ ، لكى يحتَلّ العثمانيّون مصرَ والشمالَ الأفريقى ،

وينزحُوا (ينقلوا) إلى الأناضُولِ خيرةَ العلماءِ ، والكتبِ ، والعِمَالةَ الفنّيةَ الحِرَفيّةَ الماهِرَةَ .

وفى هذَا القرن هَاجم الجزائريّون ، والتُّونسيّون سواحِلَ أسْبانيا ، وهاجَم العُثمانيّون جبَلَ طارق ، ومدينة « نيس » (بفرنسا) ، ومدِينَةَ « أوترانتو » بإيطاليا ، وسواحِلَ صقلّية ، واستولَوْا على بلادِ البلقان بأسْرِها ، إلى بحرِ « الإدْرياتيك » .

وهكذا كانَ القرنُ السادِسُ عشرَ ، قرناً عاصِفاً بالحُرُوب ، وتغيُّر موازِينِ القُوى بيْنَ الشرْقِ والغرب ، والشّمالِ والجَنُوب ، فَسَرَتْ (انتشرت) الانهياراتُ الاقْتِصاديّة فى بلادِ الشرْق والجَنُوب . ومع هذِه الانهياراتِ بدَأَ التخلّف الثقافىّ والعِلْمىّ والفنى ، فى الشّرق والجنُوب ، بقدْرِ ما بدأَتِ النهضَةُ فى بلَادِ الشّمال .

وكانَ على « داودَ بن عمرَ الأنطاكى » الكفيفِ البصرِ ، وَسْطَ هذا الدّمارِ فى المشرقِ كلّه ، أَنْ يكُون طبيباً عالِماً ، ومؤلّفاً فى الطِّبِّ ، والصَّيْدَلَةِ .

العودة إلى أنطاكية

أتقنَ « داودَ » خلالَ سنواتٍ عديدةٍ ، اللغةَ اليونانيةَ واللاتينيةَ والتركيةَ ، وحصّلَ معارف الطبِّ اليُونانىِّ مع ابن عمه ، وعادا معاً إلى « أنطاكْيَة » ، يحملان معهما ، على ظهورِ البِغَالِ صَنَادِيق مَلْأى بالكُتُبِ المَنْسُوخة .

وحَزِن « دَاوُدُ » حينَ عِلمَ بخبرِ وفاةِ أبِيه ، وأمّه ، وذهَبَ لزيارةِ قَبْرِيْهما ، وجلَس « دَاوُدُ » يقرأ الفاتِحَةَ على رُوحَيْهما . وخاطَبَ أَبَاه ، فى مَثْواهُ (قبره) ، بصوتٍ مَسمُوع ، قائِلا :

– ودِدْتُ لو كُنْتُ مُبصِراً ، لأَحْمِلَ فى قَلْبى صورَةَ وَجْهِك يا أبِى .

وفُوجِىءَ « داود » بالطبيب الفارِسىّ « بَهْزَادُ » ، يجلِسُ بجانِبه ، ويقُولُ له :

– رحَلَتْ أُمُّكَ عنّا أَوّلاً ، وَوَدّع أَبَاكَ الدُّنيا بعدَها ، قَبْلَ شَهْرٍ فقَطْ يا دَاوُدُ . و « أنطاكْيَةُ » بأسْرِها تَنْتَظِرك لِتَكُونَ رئيساً لقَرْيَةِ « حبيبِ النجّار » ، وطبيباً لمرضَاهَا . وقد تَرَكَ لَكَ أبوك ثَرْوةً طائِلَةً ضَخْمَةً ، فأنت ابنُه الوَحِيد .

وبرغم حُزْنِ « داودُ » فقد فرِحَ لسماعِ صوتِ معلّمه ، فعانقه ، ومشَى وإيّاه عائِدَيْن إلى بَيْتِ الأهْلِ ، مع ابنِ العَمّ . وكانتْ خُطى « داوُدَ » ما تزالُ تَذْكُرُ طُرُقاتِ « أنطاكْيَة » ، ينحرِف معهَا حِيناً ، ويصعَدُ معهَا حِيناً ، وينحدر وإيّاها حِيناً آخَرَ .

وفى بيتِ الأهلِ ، وقد انقشَعَتْ (زالت) غَمَامةُ (سحابة) الحُزْنِ ، جلَس « دَاوُدُ » وابنُ العم ، يُحدِّثَانِ « بَهْزَادَ » عن بِلَادِ آسْيَا الصغرى ، والعُثْمانيّين ، والرّومَان البيزنطيّين ، الذين آثَرُوا (فضّلوا) البَقَّاءِ ، مع الأَتْراك ، فى المُدُنِ والقُرَى . وكانَ « بَهْزَادُ » قد بَلَغ الغاية من الكِبَرِ فى السِّنّ ، وآثَر البقاءَ مع أهْلِه فى أنطاكْيَة ، بعيداً عن بطْش الصَّفَوِيِّين الشيعيّين ، وصِرَاعَاتِهم الحربيّة مع الأَتْراكِ العُثْمانيين .

سأرحل إلى مصر

وأعْلَن « داوُدُ » فى اللّيلِ ، لبَهْزَادَ ، وأَعْيانِ قَرْيَةِ « حبيبِ النّجّار » ، أنّهُ سيُغَادِرُ أنطاكيَةَ إلى مِصْر . فمِصْرُ لا تَزَالُ داراً للعِلْمِ والعُلَماءَ ، والمَمَاليكُ لا يَزالُون يحكُمونَ مِصْرَ ، من قِبَلِ العُثْمانيين ، فلم يتغيرْ فيها شَىءٌ كثيرُ ، عَدَا تدفُّقِ التِّجارَة ،

عبْرَها ، بينَ الشّمالِ والجَنُوب . وفى مِصْرَ ثَمّةَ عِلْمٌ كثيرٌ ، ما يَزالُ هو بحاجَةٍ إلَيْه .

وتفهّم أَعْيَانُ القريةِ رَغْبَةَ « داوُدَ » ، وعَرَضُوا عليهِ شراءَ ما وَرِثه من متاجِرَ ، وعقاراتٍ ، ومزارِعَ ، ليستعين بثَمَنِها على حياةٍ وَادِعةٍ فى مدينةِ القَاهِرَة .

وقال « بَهْزَادُ » بقلَقٍ على « داوُدَ » :

– كيفَ ترحَلُ وحدَك ، وتُقِيمُ وحْدَك ، فى مدينَةٍ مِثْل القَاهرة ، وهى واسِعة الأَرْجاء ، مُزْدَحِمَةٌ بالنّاسِ ؟

فَسَارَع ابنُ العَمِّ يقُول :

– عاهَدْتُ « داوُدَ » على البَقَاءِ معه . وسأظَلّ لهُ ، مِثْلما كُنْتُ ، القَارِىءَ الذى يقرأُ له ، والكَاتِبَ الذى يُملِى علَيْه ، والدَّلِيلَ الّذى يسيرُ معَه فى الطرِيق .

وضَحِك ابنُ العم ، وقالَ لداوُدُ :

– فى مِصرَ ، يا ابْنَ العَمّ ، سنتزوّج من بنَاتِ مِصْرَ .

هنا المُقَام

هَبَط « داوُدُ » وابنَ عمه ، أَرْضَ مِصْر ، واستقَرّا بحَىّ الأَزْهر فى القاهِرة . وولّى « داوُدُ » وجْهَهُ شَطْرَ (نَحْو) البيمارستانات القاهِريّة ، وخاصةً البيمارستان المنصُورى . وكانتْ بها ، آنذاك ، مكتبَاتٌ غِنيّةٌ بكُتُبِ التّراث ، وبالأَطِبّاء العُلَماءِ ، من أهْلِ مِصْر ، ومن المهاجِرين إليها ، هَرباً من الفِتَنِ والاضْطِرَابَاتِ .

ووجَد « داوُدُ » ، فى القَاهِرة ، المَلْجَأَ ، والأَمْن ، والعِلْم ، فالمدِينةُ هَادِئَةٌ ، لا يُحِبّ أهلُها سَفْكَ الدّمَاء ، والتديُّنَ بها مُعْتَدِلٌ ، لا تَزمُّتَ فيهِ ولا تَقْصِير ، والمواطنَةُ فيها حَقٌّ للمُسْلِم والمسيحِىّ واللاجِىءِ والمغترِب . واطمأن قَلْبُ « داوُدَ » ، فقال لابن عمّه :

– هُنَا المُقَامُ ، يا أَحْمد ، إلى أَنْ يشَاءَ الله .

وتزوّجَ الاثْنَان ، وعكَفَ « داوُدُ » فى البيمارستان المنصُورِىّ ، على كُتُبِ الطِّبِّ العربِيّة ، يقرأُ له ابنُ العَمّ ، ويُمْلِى هو عليْه ملاحظَاتِه ، فيُدَوِّنها (يكتُبُها) أولاً بأوّل ، ليرجع إليهَا حِينَ يشَاء .

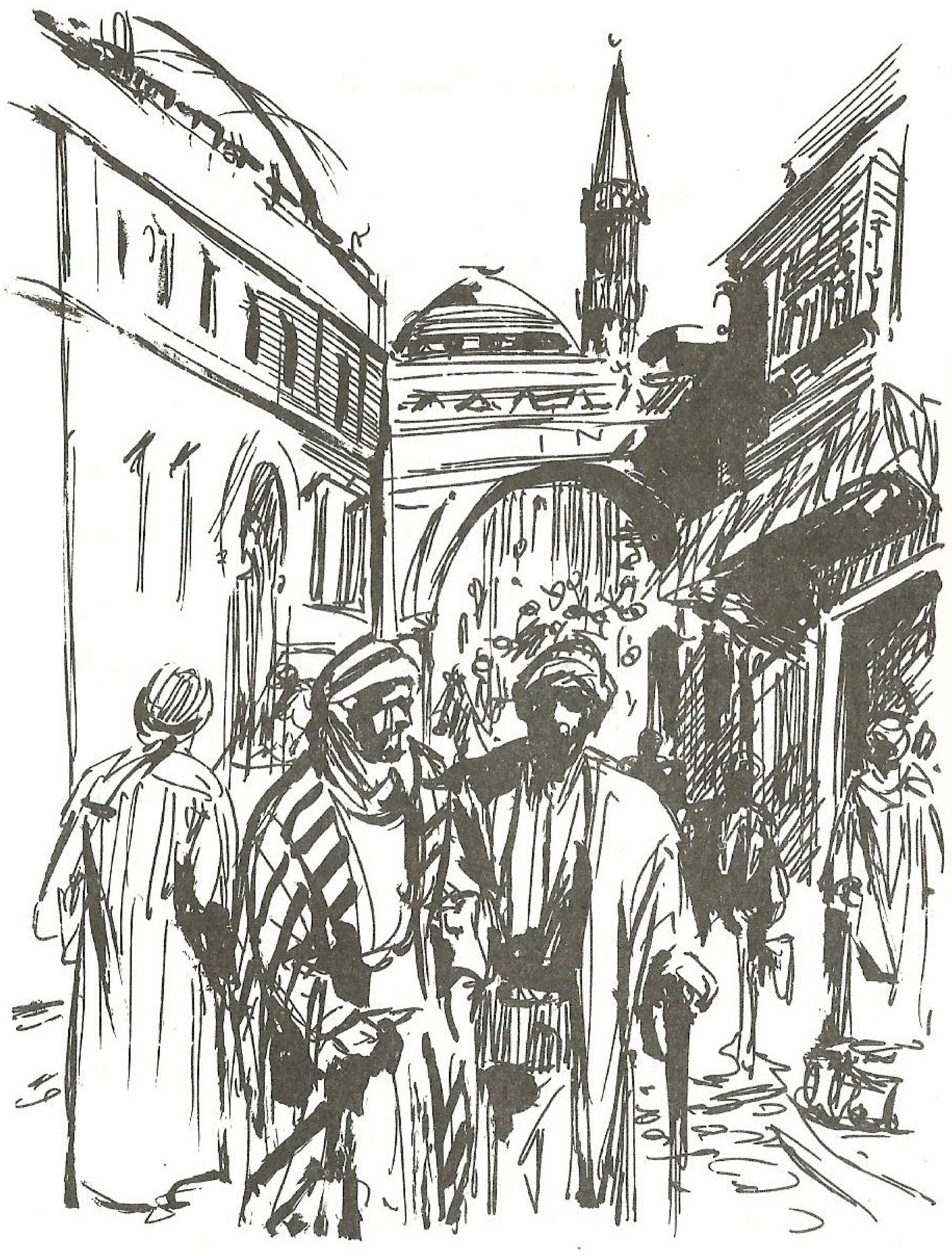

دراسة منظّمة

فى القاهِرة ، وفى البيمارستان المنصُورِى ، درس « داودُ » ، دراسة منظمة ، كُتبَ السابِقين ، فى علمِ الدواءِ (الصيدلة) ، عن الأدْوِيَةِ المفردَةِ ، والمركّبة ، والنباتيّة ، والحيوانيّة ، والمعدنيةِ ، وعَرف أسماءَها التى يتعامَلُ بها أطِبّاءُ مصر ، ومَصادِرَها ، وقُواها ، وأهمِيّتَها فى علاجِ الأمْراض ، وعرَف المزيدَ عن الأمْراض ، وأعراضِها ، وأسبابِها ، وعلاجِها ، وأضافَ إليها مَا عَرفه وهو بالشّام ، وتركيا ، فاجتمعَتْ لديْه معرفةٌ طبيةٌ نباتيةٌ ، بلغَ عددُها ثلاثَةَ آلاف نَباتاً ، حصّلها من كُتُبِ التراثِ العربية ، واليُونانيّة ، والفارسيّة ، وقَرأهَا بلغاتِها ، وكانتْ قائمةُ علماءِ هذه المعرفة بالدواءِ ، كثيرةَ الأسماءِ ، غزيرةَ العَطاء ، وبيْنَ هذه الأسماء ، كانَ ابنُ رَبن الطّبرىُّ ، والكِنْدِىُّ ، والرّازِىُّ ، وابنُ العبّاس الأهْوازِىّ ، وابنُ الجزّارِ ، وابنُ سِينا ، والبيرُونِىّ ، وابن ماجه ، وابنُ التّلميذ ، والغافِقىُّ ، والإدْريسىُّ ، وابنُ ميمونَ ، وابْنُ البِيطارِ ، وكُوهِين العطّار .

وقُدّرَ لداوُدَ أن يكونَ هو آخرُ العلماءِ العرب بالدّواء ، وأنْ

يُؤَلف فيه ، هو الكفِيفُ البصرِ ، أكْبَرَ وأخْلدَ وأشْهَر كتابٍ ، فى عِلْمِ الدواءِ .

سرّ الحبّ

وذاعَتْ شُهْرَةُ « داوُدَ » فى البيمارستَان ، ومدينةِ القاهرة ، وضَواحيها ، كطَبيبٍ مُعالجٍ للفقراءِ والأغنياءِ ، فى حَىِّ الأزْهَر . فعُيِّن بالبيمارسْتَان المنصورِىّ رئيساً للعشّابين فى ذلِكَ الحين (الصيادلة) . وتعززت مكانتُه فى البيمارستانِ ، مع السنواتِ ، حتى دعَاه إليهِ رئيسُ البيمارستان ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وقال له :

– ياداوُدُ . آن لَكَ أن تَشْغَل مَكانِى ، رئيساً لهذا البيمارستان ، فقد كبِرْتُ فى السِّنّ ، وآنَ لِى أنْ أستريحَ من عناءِ العَمَلِ ، وقد اختارَكَ الأطِبّاء ، فى هذا البيمارسْتَانِ لتكونَ رئيساً لهم . إن قبِلتَ ، سيُصْدِرُ الوالِى العُثْمانى ، قراراً بتعْيينكَ فى هذَا المنْصِبِ . وأرَى أن تَقْبَله ، فلَكَ من نُورِ البصِيرة ، وحُبِّ المِهنَةِ ، ما يجعلُكَ أهلاً (جديرا) لهذَا المنصِب .

وقبِل « داوُدُ » ، فقالَ له رئيسُ البيمارستان ، ضاحِكاً :

– كَيْفَ أَحبّك الناسُ يا داوُدُ ؟ العلْمُ والمهَارَةُ لا يكفيانَ لكسْبِ قُلوبِ الأغنياءِ والفقراءِ .

فقال له « داوُدُ » بتواضُعٍ :

– هذا من نِعْمَةِ الله . وأظنّ أنّ ذلِكَ يرجعُ إلى أمرَيْن : فأنَا أُعلِّم الناسَ كيْفَ يحافِظُون على صحّتِهم بالوقايَةِ . وكيف يعالِجُون أنفسَهم حين يمرضُون ، خاصةً فى الأحوْالَ التِى لا تدعُو إلى استِشَارَةِ الطبيبِ .

ألقـــاب

ومَنَحتْ مدينةُ القاهِرةِ ، على ألْسنَةِ الأطِبّاء ، والنّاسِ « داودَ بنَ عُمرَ الأنطاكِىّ » ألقاباً ، يَفْخَرُ بها ويزهُو أىُّ عالِمٍ طبيب ، وبين هذه الألقاب ، كانتْ ألقَابُ : أَبقراط زمانِه ، والعلّامةُ الطبيب ، والحكيم ، والماهرُ ، والفريدُ ، والطبيبُ الحَاذِق (الماهر) ، والعالِمُ الكامِل ، و .. الصّيْدَلَانِىّ الضّرِير .

وجلَس « داوُدُ » ذاتَ ليلةٍ ، مع ابنِ عمّه ، وقالَ له :

– أَعِدَّ لنا أورَاقاً ، وأقْلاما ، وأحبْاراً ، فقد عزَمْتُ على

ألاّ تَذْهَبَ خِبْرتِى بالصّيدلَةِ مَعِى ، حينَ أودع الدُّنْيا . لقد جاوَزْتُ من العمرِ خمسةَ وخمسِينَ عاماً يا ابنَ العم . وصارَ من حَقِّ العِلْمِ عَلَىّ ، أن أُدوِّن (أُسَجّل) خبرَتِى ، ومعارِفى ، بالدوَاءِ .

وكانَ السلطانُ العُثْمانِىّ « سُليمان الأول » قد تُوفّىَ فى ذلِك العام ، وتولّى مكانَه السلطان سليم الثانى ، وَوَلِىَ أمْرَ مصر ، من قِبَلِ العُثمانيين ، وَالٍ جدِيد .

مـن الذاكـرة

فى السّنواتِ التالِيَةِ ، وطَوَالَ أَكثَر من رُبْعِ قَرْن ، راحَ « داوُدُ » يُملِى على ابنِ عمّه ، ومن ذاكرَتِه القويةِ العجيبة ، كتاباً فى ثلاثةِ مُجلّدَاتٍ ، عن الأدْوِيةِ المفردَةِ ، والمركّبةِ ، من النّباتَاتِ ، والمعادِن ، والحيوانَاتِ ، ونادِراً ما كانَ يتوقّف ، ليتثبّتَ لنفسِه وللعلمِ من أمرٍ شكّ فيه ، أو غابَ عنه ، فيطلبَ من ابنِ عمّه أن يفتحَ له مرجعًا بعَينِه ، ويقْرَأَ له فى فَصْلٍ بعينِهِ ، معلومَاتٍ بعينها ، عن نَباتٍ ، أو حجرٍ ، أوَ معْـدِن ، أو حيوانٍ . ثم يواصِلُ الإملاءَ من جديد ، عن أَنْواعِ العطارات

عندَ العشابين : العِطَارَاتُ المُرّة ؛ والأَفاوِيه (التوابل) ؛ والبَلاسِمُ ؛ والعِطَارَاتُ المُسَهِّلَةُ والمُلَيِّنَةُ ؛ والقَـابِضَةُ ، والعِطَارَاتِ المنوِّمَةُ والمخَدِّرَة .. عن : الكينا ، وجَوْزِ القيىء ، والهَنْدُباء ، والدّاتُورَة ، والخَشْخاش ، والكَسْكَرَة ، والبُنِّ ، والشّاى ، والحِلْبَة ، وعُودِ رِيحِ المغربى ، وقِشْرِ الرّمّان والعَكْنَة أو السُّورَنْجان ، وعرقُ الذهب .. وعنْ السَّنامِكَة ، والعشبةِ ، والبابُونج ، والرَّاوندِ ، والتمرِهنْدِى ، والخردلِ ، والحنظلِ ، والصَّبر .. وعن القِرفةِ ، والكَرَوايا ، والشّمَر ، واليَنْسُون ، والكُزْبرةِ ، والكافُور ، والزنجبيل ، وجَوْزِ الطّيبِ ، والبُهارِ ، وكُبَابَةِ صينى ، والمرِّ ، والجَاوِى والبَلْسَمِ ، والحَنْتِيت ، والمَيْعَة السائِلة ، والمصْطكَى ، والكْتيرا ، والعنبرِ ، والقَناوَسَق ، وآلاف سواها من النباتات ، فضلاً عن المعادِن ، وأجزاءِ الحيوانات .

ملـح الطعـام

وحين وصلَ « داود » إلى ملحِ الطعام ، قال لابنِ العمِّ :

اكتُب يا أَحْمَد .

فضحِك « أَحمدُ » وقال :

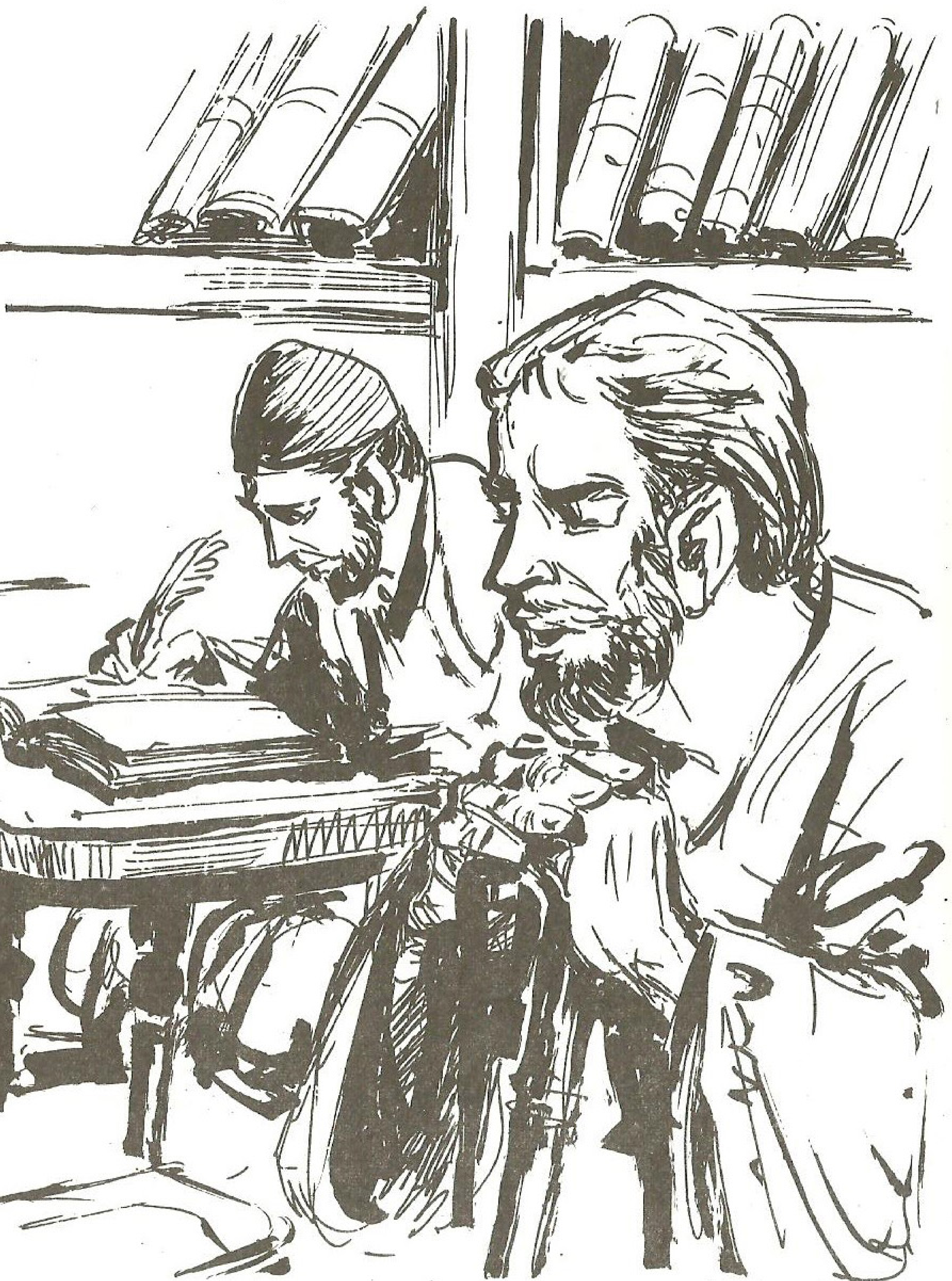

– لم أتوقّف عنِ الكتابةِ قطّ .

ولم يضحك « داوُد » لدُعابةِ ابن العم . كان رأسُه مشغولاً بما سيُمليه . قال :

« المِلحُ إمّا معدِنىّ ، ويسمى : البَرّى ، والجبلىّ ، وإمّا مائىّ (يستخرج من مياه البحيرات والينابيع والبحار) . ويُطلق على : التّنكارِ ، والقلى ، والبورقِى ، والأندرانى (كلّها أنواعٌ من الملح) . وكلّه يستأصِلُ (يقضى على) البلغمِ ، والرطوباتِ اللزجةِ ، والسّدَد (فى الشرايين) ، ونزْفِ الدّم ، ووجعِ الأسنانِ ، واللحمِ الميّتِ ، ويُدْمِلُ الجِراحَ ؛ ويُذْهِبُ الحكّة ، والقُروحَ ، والجُدَرِىّ مع الأدهان ، خصوصاً مع الزيت ؛ ويمنَعُ التّخَم ، وفسادَ الأطعمة ، ويحسِّنُ اللوْن ، وينظّفُ المعدَة ، ويقِى من الجُذَام » .

ليت الشباب

وحين انتهى « داوُدُ » أخذَ « أحمد » يحرّك أصابعَه المجهدة ، ليريحَها ، ثم قال :

– قرأتُ فى الكتبِ عليك عن هذا كلّه . هناكَ فى تركيا ،

وفى دمَشْق ، وهنا فى مِصر ، لكن حافِظَتى (ذاكِرتى) لم تعِ كلّ ما أمليته علَىّ ، ولم تميّز بين هذا وذاك .

فضحِك « داوُد » وقال :

– لو كانتْ لديْكَ ذاكرةٌ مِثل ذاكرتِى ، ولو كانتْ لديكَ الرغبةُ فى التحصِيل ، لما وجدْتُ ابنَ عمٍّ مثلَك ، أُملِى عليه ، ولرُّبما كُنْتَ قد صِرْتَ ، أنتَ الآخرَ ، عالِماً بالدّواء .

فقالَ ابنُ العَمِّ :

– إنّى سعيدٌ بصُحبَتِكَ يا داوُدُ ، وأشْهَد أنّك جمعتَ ما تفرّقَ فى الكُتُب ، وميّزتَ بالخِبْرَةِ بين ما اختلفَتِ الأقْوالُ فيه ، بين الأطباء ، وعلماء النبات . لكن ..

فقال داوُد :

– ماذَا يا ابْن العَمّ ؟

فقال « أحمدُ » جادًّا :

– كبِرْنا فى السِّن معاً يا دَاوُد . وبُوُدِّ كلّ الناس ، أن يَعرِفُوا مَثلَنا ، ما يُعيد القُوّةَ إلى الكُهُول والشيوخ .

فضحِك « داوُدُ » ضحِكاً طويلاً عالِيا ، ثم قال :

– كلّ الناسِ .. أمْ .. أنتَ يا ابْنَ العَمّ ؟

وأضاف :

– عليكَ بالتّوابِل ، واليَنسون ، والقُرنفل ، والقرفةِ ، والنّعناعِ ، والبقدُونس ، والثوْمِ ، والبصلِ ، والفُلفُل ، والبُهارَات ، والشّطة ، وجوزةِ الطّيب ، وجذورِ الكَرَفس ، فاجعلْها فى طعَامِك من العَسَل ، والبَيْض ، والحَمَام ، والشّواء (الكباب) ، والكَلَاوِى ، واللّوْزِ ، والفُولِ الأخضر ، والأسْمَاكِ ذَاتِ الأصداف . وعَلَيْكَ بفُلِّ البُنْدُق ، وزيْته ، والمِسْك ، والعنْبر ، فاجْعَلها فى شَرَابك . وإذا أردْت أن تتسلّى بينَ الطعامِ والطّعَام ، فَعَلَيك بأُم الخُلُول ، وأمثالِها من ذواتِ الأصداف . وارجِع فى هذا كلّه إلى ما أمليْته عليْك .

وبقيت المقـدمة والذيل

ووضَع « داوُدُ » عنواناً لكتابه هو : « تذكِرَةُ أُولِى الألْبابِ والجامعُ للعَجب العُجاب فِى علْم الطبِّ » . وحينَ اطلَعَ عليهِ رئيسُ البيمارستان الأَسْبق ، هالَه الجهْدُ الذى بذلَه « داوُدُ » فى تأليفه ، وقالَ :

– جعلتَ معارِفَ العلاجِ والتّداوِى مُشَاعَةً بين كلّ الناس يا دَاودُ ، ولَمْ تتْركها حِكْراً (وقفا) على الأطِبَّاء . سوفَ يكرهُكَ الأَطباء الذينَ أحبّوك لذلِك يا داوُدُ ، فمرْضاهم سوفَ يقلُّون عدَداً .

فقال « داوُدُ » مهوّنا الأمر :

– يا صاحِبى . أكثَرُ الناسِ فى زمانِنا لا يعرفُون القراءَةَ والكتَابَةَ ، ولن تقِلّ حاجَةُ الناسِ أبدًا إلى الطبيب ، ليُشخِّص لهُم أمراضَهم ، ويداويَهُم مِنها . وأظنُّ أن كلَّ ما فعلتُه ، هو أنّنِى أضفْتُ جماعةً مِنَ العَطّارِين إلَى الأطباء ، ليُسْعِفُوا المَرْضَى ، بما يحتاجُونه من عِلَاجٍ فى الأمْراضِ اليَسِيرة ، والوَعْكَاتِ العَابِرة ؛ وأَنّنِى جمعتُ كلّ ما دوَّنَه السابِقُون ، وتفرّق فى بُطُونِ الكتب ، فى كتابٍ واحِدٍ ، سيظَلّ ، فيما أرجُوه ، مرجعًا للأطباءِ ، والصيادِلة ، والعَطارِين .

وأضافَ داوُدُ :

– على أَنَّ كتابِىَ هذا ، حين فكرتُ فيه ، وجدتُه ينقصُه أمران ، سأَتَدارَكُهما من الغدِ إنْ شاءَ الله .

فقالَ له رئيسُ البيمارستان الأسْبَق :

– وما هُما هذانِ الأمْران ؟

فقال « داود » :

– مُقدّمةٌ جامِعَةٌ فى صنُوفِ العُلوم ، وبحوثٌ أُخْرَى فى عِلْمِ الطبّ والأمْراض ، وفى الأَدْوية المفردَةِ والمركّبة ، وبعْض الفذْلكات (النوادر) والأخبار ، لتكُون فى الكِتَاب ، مثل البُهار فى الطّعَام .

عندئذٍ قالَ ابنُ العم مُغاضِبا :

– إذَنْ سنُعِيدُ كتَابَة ما كتَبْناه .

وضَحِك الثلاثَة . وقالَ رئيس البيمارستان الأسْبَق :

– هذا أمرٌ ، والأمرُ الآخرُ يا داوُدُ ؟

فقال « داوُدُ » :

– ذيْلٌ للكتاب ، يكونُ له خاتمةً ، عنوانُه : « تَزْيينُ الأَسْواقِ بتفصيل (ترتيب) أشواقِ العُشّاق » . فالمحِبّون فى زَمَانِنا يعانُون أمراضَ النفسِ من الحُبّ ، وينشدُون عندَنا نحنُ الأَطِبّاء ، ولَدَى العطارِين ، ما يُعينهم على النّسيان والسّلْوى ، إذا عزّ وصْلُ الحبيب ، لسبَبٍ من أسباب الفقْر والغنى ،

أو القُبْحِ والجَمَال ، أو الصِّغَرِ والكِبَرِ فى السِّن ، والشرَفِ والضَّعَة . وسيكُون هذا الذّيْل ، تلخيصاً لكتابِ « محمدِ السراج » فى هذَا الموضوعِ .

تذكرة داود

نَسَخَ الورّاقُون كتابَ « داوُد » فى الطبّ والصَيدلة ، فتخاطفَتْه أيدى الخاصّةِ والعامّةِ ، مع الأطباءِ والعطّارِين ، وسَرْعَان ما نَسُوا اسمَ الكتاب ، وصار معرُوفا بينَهم باسم « تَذكَرَةُ داوُدَ » ، ونَسُوا معه كتاباً آخرَ لداوُدَ هو : « البَهْجةُ والدّرَرُ المنتَخَبَة فى تشحِيذِ الأذهان ، وتعدِيلِ الأمْزِجة » ؛ ورسائلَ (كُتَيّبات) عن حَجَرِ الفلاسفة (الذهب) ، وعن إدخالِ أحكامِ النّجومِ فى عِلْمِ الطّبِّ .

الإنسان .. والعلم

عامَ ألفٍ وثمانيةٍ هجرية ، ألفٍ وخمسمائةٍ وتسعةٍ وخمسينَ ميلادية ، اجْتمع حوْل « داوُدَ » فى بيتِه بالأزْهر ، عددٌ من تلامِيذِه ومحبّيه ، وبينَهم أطباءُ وعطّارُون ، وهواةٌ للمعرفة الطبيّة . وراحَ « داوُدُ » يقولُ لهم حِكَمَه ووصاياه :

« يكفى العلمَ شرَفا أن الكُلّ يدعيه ، وكفى الجهلَ ضَعَةً أن الكُلّ يتبرّأ مِنه » .

« الإنسانُ يحترمُ الإنسانَ بقدرِ ما يملكه من معرفةٍ وعِلمٍ . وتزدادُ قيمتُه إذا مارَس مهنةَ التعليمِ والتأليفِ » .

« لقَدِ ارتفعَ مُستوى الإنسانيةِ ، حينمَا استَلَم المسلمُون مهنةَ الطبِّ فى العلمِ » .

« الإنْسَانُ إنسانٌ بالقوّةِ إذا لم يعلَم ، فإذا عَلِم كانَ إنساناً بالفعل » .

« عارٌ على من وُهِب النُّطْق والتمييز ، أن يطلبَ رُتْبَةً (مكانةً) دونَ الرّتْبةِ القُصْوى (العُلْيا) فى المعْرِفة » .

وسألهُ طبيبٌ شابٌّ ، قالَ له :

– ما الذى دفعَك حقّا إلى تأليفِ كتابِكَ « التذكِرَة » ، فتصدَّيْتَ به لمهمةٍ يهرب الكثيرون من القيامِ بها ؟

فقالَ له « داوُدُ » :

– حينَ دخلتُ مصر ، رأيتُ فقهاءَ ، وهُمْ مرجعُ الأمورِ الدينيةَ ، يمشُون إلى يهودِىّ قليلِ الشأنِ فى التطبيبِ ، وليس

بطبيبٍ ، فعزمتُ على أنْ أجعَل الطبّ عِلْماً مُشاعا كسائِرِ العلوم ، يُدْرَس ليستفِيدَ به المسْلِمُون .

فقال له الطبيبُ الشّابُّ :

– لكنّ سُفهاءَ لازَمُوك ، وتعاطَوْا الطبَّ على يدْيك ، ثم استَغَلّوا ذلِك فآذَوا الناسَ فى أَموالِهم وأَبْدانِهم ، طلَباً للنفعِ والكسْبِ ، بإطالةِ أمدِ (مُدَّة) العلاجِ .

فقال لهُ « داوُدُ » :

– يا بُنىَ ، بِى وبدُونى ، ستَجِدُ فى كلّ مهنة ، فى كلّ بلد ، فى كلِّ زمن ، من يفْعَل هَذا الشّرّ .

وتنَهَّد « داوُدُ » وقالَ :

– بسبَبِ هذا البعضِ مِمّنْ لا ضَمائِرَ لهم ، لُمْت « أبقْراطَ » يوماً وانتقدتُه ، لأنه عمَّمَ مهنةَ الطبِّ فى زمانِه ، وأعطاهَا لكلِّ النّاس ، ثم رجعْتُ عن هذا اللوْمِ والنقْدِ ، ففسادُ البِعضِ لا ينبغِى أن يحْجب الخيرَ والنّفْع عن كلِّ النّاس ، ولا المعرفةَ عن بعْضِ الناس ، دونَ بعضِهم الآخرَ .

وكانتِ الساعةُ قد قاربتْ منتصَفَ الليل ، فنهَضَ زُوّارُ

« داوُدَ » مستأذِنين ، ليتيحُوا له فُرصَةَ ليَرْقُدَ قليلاً ، قَبلَ صلاةِ الفجْرِ ، ثم يغادِرَ دارَه ، ليصحَبَ قافِلةً للحُجّاج ، مُسافِرَةً إلى مكّةَ عبْرَ سِيناء .

●

فى مكّةَ أَدّى « داوُدُ بنُ عمرَ الأنْطَاكِى » فريضةَ الحجّ ، ولم يكدْ ينتهِى منها حتّى وافاه الأَجَل ، وهو يُصلّى الفجرَ فى المسجِدِ الحَرام . وعادَ الحجيجُ بدونِه ، فَحزِن عليْه أَهلُ مصرَ ، وكانَ عزاؤُهم فيهِ ، وسلواهُم عنه ، فى كتابِه الخالِد « تذكرة داود » .

وفى أرجْاءِ الأرضِ ، وإلى عديدٍ من لغاتِ العالَم ، فى العِصرِ الوسيطِ والحديثِ ، تُرْجمت « تذكرة داود » ، وأَعدّ الأطباءُ عنها التهذيبات ، ولها الملخّصات .

وعن « داودَ » وكتابه « التذكرة » ، كَتبتِ الموسوعاتُ العَالَمية ، وكتبَ كثيرونُ من العلماءِ ومؤرخو العلوم ، والصّيادلة ، فى الشرقِ والغرب . بينهم « المُحِبّى » فى كتابه « خُلاصة الأثر » ، و « حَسَن عبد السلام » فى كتابه « ذخيرة العَطّار وتذكرة داوُدَ فى ضوءِ العلمِ الحديث » ، و « جابر

الشُّكَرِى » فى كتابِه « الكيمياءُ عند العرَب » ، و « محمدُ فائِز القصْر » فى كتابِه « تاريخُ النباتِ عندَ العرَب » ، و « محمودُ الحاجُ قاسِمُ محمد » فى كتابِه « الموجَزُ لما أضافه العرب فى الطبِّ والعُلُوم » ، و « عبدُ الحليم منتصِر » فى كتابِه « تاريخُ العلم ودوْرُ العلماءِ فى تقدّمه » ، و « بُرُوكْلِمان » ، و « فرنيه » و « لِكْلرك » فى « دائرةِ المعارف الإسلامية » ، التى أعدّها ونشرَها الفرنسيون .

●

ولقد ظلّت « تذكرةُ داوُدَ » المرجعَ فى التداوِى من الأمرَاض عدداً من القرون ، فى مدارِسَ ومعاهدَ وكليات الطبّ فى أوربا والعالَمِ الإسلامى . وهو مرجعٌ جعَل كلَّ ما قبله من مراجِعَ يتوارَى فى الظِّلِّ ، لدَى الأطباءِ والعطّارِين .

ففِى « التذكرة » صَبَّ « داوُدُ » كلّ معارِف السابقين فى التّداوِى ، وبنظامٍ مُحْكَمٍ جديد ، جمعَ فيه بينَ معارِف العلوم الشتى ، الوثيقةِ الصلةِ ، بالطلبِ والصيدلةِ ، وسخَّرها لغرضٍ واحدٍ ، هو التداوِى والعلاج بأدويةٍ مستخلصةٍ من النباتاتِ ، وأجزاءِ الحيواناتِ ، والمعادِن ، كان قد تصدّى لها قبله بالذّكر ،

والشّرح ، والاخْتِبَار ، أطباءٌ وعلماءٌ عِظَام ، من اليونانِيِّن ، والفُرس ، والهنود ، والمصريين ، والعرَب ، والمستعْرِبين بالإسلام .

●

وفى عصرنا الحديث ، يشيع العلاَج بالأدويةِ الكيماوية ، مع مُسْتخلَصاتٍ طبيعيةٍ طبيةٍ من النباتاتِ ، والمعادنِ ، والحيواناتِ .

وفى العقودِ الأخيرة ، من القرنِ العشرين ، تعود ؛ إلى مَسْرَح العِلَاجِ الطبِّى ، الأدويةُ الطبيةُ الطبيعيّة ، لتنازِع الأدويةَ الكيماوية عرشَها . وتُباعُ هذه الأدْوِيةُ الآنَ فى عديدٍ من صيدلياتِ أوربا ، طَازَجةً ومجَفَّفة ، ويُقْبِلُ عليهَا الناسُ فى صَيدليّاتِ عربيةٍ ، وعندَ العطارينَ ، تفادياً للآثارِ الجانبيّة ، للأدويةِ الكيماويةِ ، وهى عودَةٌ سيحتَلُ فيها « داودُ بنُ عمرَ الأنطاكى » وكتابُه « التذكرة » مركزَ الصدارَة ، التى كانتْ لهُما ، فى القُرونِ الخالِيَة .

رقم الايداع

١٩٩٣ / ٥٠٩٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء العرب
٢٠

الأنطاكى

آخر الصيادلة العرب العظام، المعالجين بالأدوية الطبية الطبيعيـة. عاش فى القرن السادس عشر الميلادى، وولد كفيف البصر على ضفاف نهر العاصى، وأجاد عدة لغات وجاب أنحاء تركيا والشام ومصر طلباً للمعرفة. واستقر فى مصر وعمل بها رئيساً للصيادلة والبيمارستان وترك وراءه كتباً فى الطب والدواء أشهرها كتابه «تذكرة داود» فى ثلاثة أجزاء، جمع فيه أكثر من ثلاثة آلاف نبات. إنها قصة تثير الفخار. يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة :

١ - ابن النفيس
٢ - ابن الهيثم
٣ - البيرونى
٤ - جابر بن حيان
٥ - ابن البيطار
٦ - ابن بطوطة
٧ - ابن سينا
٨ - الفارابى
٩ - الخوارزمى
١٠ - الإدريسى
١١ - الدميرى
١٢ - ابن رشد
١٣ - ابن ماجد
١٤ - القزوينى
١٥ - ابن يونس
١٦ - الخازن
١٧ - الجاحظ
١٨ - ابن خلدون
١٩ - الزهراوى
٢٠ - الأنطاكى

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر